

## شخصية ابن خلدون

في

كتاب الأستاذ محمد عبد الله عنانه

للأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي

هيأت لي فرصة حسنة قراءة كتاب الأستاذ عنان الأخير عن ابن خلدون وتصفح مقالات بعض كتابنا المصريين في التعليق عليه ، وبخاصة مقال الدكتور هيكل والأستاذ العقاد . وقد لفت نظري في مقال هذا الأخير ملاحظة تتضمن أن عنانا لم يتناول شخصية ابن خلدون في كتابه ! ولعل الذين درسوا الكتاب يذكرون أن كل فصل من فصوله حوى مادة غزيرة عن هذه الشخصية ، وإن لم تجمع هذه المادة في فصل مستقل .

فلقد أفاض المؤلف كثيراً في ذكر صفات ابن خلدون الخلقية والعقلية أي في العناصر المهمة التي تقوم عليها كل شخصية . ولعل كتابه وعي من هذه الصفات أكثر مما وعي عن تراه الفكري الذي لازال الكثير منه مبثوثاً في طي الجهول .

أبرز الأستاذ عنان صورة تقارب الحقيقة من صفات ابن خلدون النيرة والمظلمة أبرزها كما هي بين النور والظلمة ، كما يفعل النابهون في كتابة التراجم . ووقف من شخصيته موقفاً تزيهاً . فلم يقف منه موقف الحماس الذي يدافع عن الحقيقة حيناً ، ويستخدم فصاحته في الظفر أحياناً ، بل وقف موقف القاضي التزيه القطن الذي لا هم له الا الوصول إلى الحقيقة ، والحقيقة دون سواها . وهذا هو موقف المؤرخ العلمي .

فها نحن أولاء نراه لا يقطع برأى في خلال ابن خلدون حتى يرجع إلى التفتات الأذكياء من المؤرخين ، وتتخذ مقاييسه في الحكم من أعماله وتصرفاته . ونراه أيضاً رباً بضميره أن يطاوع بعض الكتاب في الزيادة بابن خلدون ونسبة التزيه إليه ، لئلا يكونوا قد اندفعوا في هذا السبيل جرياً وراء الانفعال الأعمى أو الماطفة الموحاه . وهذا مانواقفه عليه ، وبخاصة إذا علمنا أن لابن خلدون

وعلى لسانه الخبر المشوم بأن الملك استشار الآلهة في هذا الاختيار فأقرروا ، وأن البارزة بين الآخرة قد بدأت . وتطالع حوليا القتال عن بعد فترى اثنين من بني هوراس يسقطان مجندين ، والثالث بلوذ بالفرار ، فتبادر القوم بإعلان هزيمة روما . ويتحدم الشيخ هوراس حقناً وغضباً من جبن ولده . فتقول جوليا : وماذا يصنع واحد أمام ثلاثة ؟ فيجيبها الأب في شدة وحمة : يموت ! ثم يقسم الشيخ جهد اليمين ليسلن عار الرومان بدم هذا الابن الجبان .

الفصل الرابع : ولكن قالير وقد شهد نهاية المعركة يعود ويقول : استغفروا الآلهة فقد ظلمتم بطل روما ! انه لا بقی وحده أمام بني كورياس الثلاثة ، وهم مجروحون وهو سليم ، رأى أنه أضعف منهم مجتمعين ، وأقوى عليهم منفردين ، فعمد الى الخديعة وأوهمهم أنه يفر فطلبوه . حتى اذا انفرد كل عن الآخر كره عليهم واحداً بعد واحد قتلهم ، وبذلك انكسرت ألب ! فتسأغ غفة الشيخ ، ولكن كامل تجزع على حبيبها جزعاً شديداً يفقدها الرشد فتتحى بالعمنة والسخط على أخيها ووطنها . ويدخل حينئذ أخوها المنتصر فيسمها ، فيترو في رأسه الغضب ، فيلطح انتصاره بدم اخته

الفصل الخامس : يجمل هوراس حياته في يد أبيه تكفيراً عن الجريمة التي ارتكبها ، ويجيء الملك مهتئاً هوراس بفوزه . فيتقدم اليه قالير مهتماً الأخ بالقتل طالباً موته ، ويستسلم القاتل لسد الملك . ولكن الشيخ هوراس يتولى الدفاع عن ابنه فيقول : «معشر الرومانيين !! أرضون أن تقتلوا رجلاً لولاه ما كانت روما اليوم ؟ قل لنا يا قالير وأنت تريد قتل هوراس : في أي مكان يقتل ؟ أبين هذه الجدران ، ولا تزال آلاف الأصوات ترن في جنباتها بأعماله العظيمة ؟ أم في وسط هذه الساحات ودماء بني كورياس لا تزال تدخن فيها ؟ أم بين قبورهم الثلاثة في ميدان الوعى وكلها شواهد على شرف روما وشهامة هوراس ؟ ... ثم تكون نتيجة هذا الدفاع البليغ البراءة .

ومما أخذ النقد على كورني في هذه القطعة الخالدة أنه لم يراع وحدة السمل . فجعل فيها عمليتين مختلفين ، الأول حرب روما مع ألب ، وينتهي بالنظر الثاني من الفصل الرابع . والثاني قتل كامل ومحكمة هوراس وينتهي بالرواية .

(الزيات)

يتبع

لأن نسبة أمثال هذه التهم إلى هذا المبقرى بلا سند ، مما لا يتبيله الضمير الزيه ، وقد تكون هذه التهم أراجيف أذاعها الكاشحون عن قصد وتمدد ولا ظل للحقيقة فيها ، فليس على الأستاذ المؤلف من غبار إذا حكم حكمه الحاسم ، واحتقر هذه التهم كي لايجرى الروم إلى تصديقها ، وتصبر في الأذهان اعتقاداً وهي مجرد إرجاف ومرءاء .

ومع هذا فقد أورد المؤلف كثيراً من صفات ابن خلدون غير الحمودة ، واعتمد في إيرادها على أقوال ابن خلدون نفسه وأعماله ، فلقد نسي عليه خلتين : أولاهما تولونه ووصوليته ، وثانيتهما كبريائه وصفه . أبرز هاتين الخلتين إيراداً جلياً ، فانه يقول في القسم الأول من كتابه أن ابن خلدون كان من عباد الحوادث ، وكان ينهز الفرص ويسى لها بأى الوسائل (ص ٢٨) بهما نافت الوفاء والولاء والرفان (ص ٤٨) وجلا هذه الخلة في مكان آخر من الكتاب قال : « وكان ابن خلدون يصدر في خططه وأعماله عن احتقار عميق للمأطفة والأخلاق الرعية ، وكان يسيره مثل ذلك الروح القوي الذي أعجب به مكياقللي فيما بعد . » وأشار في كثير من المواضع الى خلة الثانية من خلاله البارزة وهي خلة الكبرياء ، وهذه الخلة قد تدل على عزة النفس وعظمتها فتكون خلة محمودة ، وقد تكون متغالية فتصير كرهية مذمومة ، ولقد أيد المؤلف تخلق ابن خلدون بها في بعض الأوقات وأنها كانت سبباً من الأسباب التي جعلت كثيراً من المصريين يتاصبون الرجل العداء .

ومن دلائل هذه الخلة مايقوله البشبيشي من أن ابن خلدون كان يكثر الازدراء بالناس (ص ٩٥) ومايقوله ابن حجر في كتابه رفع الأصر من أن ابن خلدون كان معروفاً بمخلق الكبر والازدراء بمقام غيره ، وروى أن القضاة دخلوا للسلام عليه حين تولى منصب القضاء فلم يقم لأحد منهم ، واعتذر لمن عاتبه على ذلك .

\*\*\*

وأورد المؤلف غير هاتين الخلتين البارزتين خلافاً أخرى عول في إيرادها على طائفة من الكتاب أنتت علي ابن خلدون وأخذت عليه بمض المآخذ ، فمن هؤلاء نذكر ابن تغرى بردى وما قاله في النهل الصافي من أن ابن خلدون كان محباً للنسب ، وما

أعداء حداداً أسرفوا في ذمه ، وتدقت أقلامهم في الطعن عليه غيرة منه وحقداً .

\*\*\*

وقد حفل الكتاب بذكر صفات ابن خلدون الخلقية والمقلية إلا أنه سمر سمر الكرام على صفاته الجمانية ومظهره الخارجي . فقد نقل إلينا المؤلف عن السخاوى أن ابن خلدون كان فصيحاً مفوها جميل الصورة ، ونقل عن ابن حجر أنه كان يتمسك بزبه المغربي ، ولم نثر في الكتاب على شيء من ملامح وجهه وسمات جسمه ، ولا أعلم ما إذا كانت هناك مادة في هذه الناحية تعمد المؤلف لإغفالها لأن بحثها ليس من عمله ، بل من عمل الفنان والأديب ، أو أنه لم يجد هذه المادة في كتب القدماء كما هي مع الأسف حالتهم في إغفال صفات الجسم ، ولعل هذا هو الأرجح .

\*\*\*

ومن حسن الحظ أن المؤلف أمدنا بمادة وافرة عن خلال ابن خلدون وخلقته ، فنقل إلينا طائفة من أقوال الكتاب الأذكياء أمثال المقرئى والسخاوى وابن تغرى بردى ، والجمال البشبيشي ، والمتنابى ، وابن الخطيب ، وابن حجر . فذكر أن المقرئى وكان تلميذاً له وسمه بسماحة حميدة وذكره بالخبر ، ولسان الدين بن الخطيب ، وكان من معاصريه ، نمته بحسن الخلق والطموح وعلو الهمة ، وأبو المحاسن بن تغرى بردى أشاد بمقدرته ونزاهته في ولاية القضاء بقوله : « إنه باشر القضاء بجرمة وافرة وعظيمة زائدة وحمدت سيرته » وأبو المحاسن من ثقات المؤرخين المصريين .

إلى جانب هذه الصورة النبيلة لابن خلدون نجد أقلاماً ضئيلة مسمومة تشوه صورته وتبتهت عليه ، وتزرى بخلقته ، وترميه بالهمة المؤذية الجارحة . فالمتنابى مثلاً ذكر أن ابن خلدون كان يهتم بأمور قبيحة (ص ٩٤) — والجمال البشبيشي اجترأ بقوله إن ابن خلدون كان في أعوامه الأخيرة يشغف بسماع الطربيات ومباشرة الأحداث ، وأنه تزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط ! (ص ٩٤)

\*\*\*

جمع الأستاذ عنان هذه الأقوال وعلق عليها بقوله : « إنها أقوال تم عن خصومة مضطربة ، وبسالفة في الانتقاص تنحدر إلى معترك السباب والقذف » وقد يكون الأستاذ محقاً في هذا التعليق

ولقد كشف لنا الأستاذ عنان عن عبقرية هذا الرجل الفذ وعن شاعريته أيضاً ، وأتى بقليل من قصائده ، وأبان أن هذه القصائد كان يطبعها طابع المرح الصوفي ، وهذه الأبيات تجرى بين دفتي الكتاب كالنهر العذب في الأرض الشجرة ، ولقد أضاف المؤلف في القسم الثاني من كتابه آراء كتاب الأفرنج في عبقرية ابن خلدون وترآه الفكرى فذكر ما قاله جيلوتش من أن ابن خلدون درس الظواهر الاجتماعية بمقل مترن ، وأبى أنى في هذا الموضوع بآراء عميقة (ص ١٥٢) وذكر أيضاً ما قاله فون كريمر من أن ابن خلدون ثمر يدين نديتين ثمرات تأملاته الناضجة عن سير التاريخ البشرى .

\*\*\*

وأظن بعد هذا البيان يمكن للقارىء أن يخرج بصورة صحيحة عن شخصية ابن خلدون ، صورة لا تشيع فيها ولا تحيز ، ظهرت فيها الظلال كما ظهرت فيها الأنوار . وهذا التحى الذى نحاه الأستاذ عنان في درس هذه الشخصية جدير بالتفات كتابنا المصريين المرمين بتراجم العظماء ، ولعل الذين وقع في وهمهم أن كتاب عنان لم يتناول شخصيته ، يصححون رأيهم بمد هذا البيان الموجز .

\*\*\*

وأحب قبل أن أختم هذه الكلمة أن أدعو القراء الى قراءة هذا الكتاب القيم ليتذوقوا فيه حرية البحث ونزاهة الحكم ، ودقة الأسلوب وثباته وإيجازه ورزاقته .  
وأسمح لنفسي بمد هذا أن أهنيء الأستاذ المؤلف على كتابه ، فلفد أعجبت به وبخاصة بالفصل الذى عقده عن « ابن خلدون والتفكير المصرى » الذى أبان لنا فيه خلق ابن خلدون وأوقفنا على تفكير المؤرخين المصريين في القرن التاسع الهجرى . وأعجبت كذلك بالفصل الذى عقده عن « ابن خلدون والنقد الحديث لأعلام العرب » . والذى كشف به عن تفكير ابن خلدون الدقيق الذكى .

وأرجو الله أن يزيد المؤلف قوة ليم ما أخذ به نفسه من التنقيب عن التاريخ الاسلامى ، وحياء أعلام مصر الناهيين .  
(ميت غمر) مصطفى عبد اللطيف السمرى  
المحامى

قاله ابن الخطيب الذى وسمه بالفضائل الجملة يأخذ عليه الخفة فيقول : « إنه كان بعيداً عن التأتى » ، وعالل تحامل رجال الدولة عليه الى هذه الخلة . وابن حجر نغم عليه سوء الأدب أيام كان قاضياً فقال : « كان فظاً جافى الطبع ، وكان يعزر الخصوم بالصفع » . ولم يقتصر المؤلف في سوق هذه الحقائق على أقوال الكتاب السالفين ، ولكنه اعتمد في ذكرها على أقوال ابن خلدون نفسه في كتاب — التمرين — وهذا الكتاب هو ترجمة ابن خلدون لنفسه . وهذا التمرين الذى يتركه لنا ابن خلدون عن نفسه وحوادث حياته قطعة فريدة في الأدب العربى ، فهو صورة حقيقية ممتعة لتلك الشخصية الممتازة الجريئة ، رسمت في كثير من الجريئة والصراحة ، حتى إنها لتفصح في كثير من المواطن عن خلال صاحبها ، وليست هذه الخلال دائماً مما يحمد أو مما تقرر الأخلاق الفاضلة ، فهناك الكبرياء والزهو والأثرة ، وهناك الطمع وحب الثقلب وشغف الدس ، وانتهاز الفرص بأى الوسائل ، ثم هناك الجحود ونكران الصنيعة ، هذه الخلال كلها أو بعضها نلمحها من آن لآخر ماثلة في أعمال المؤرخ ومواقفه حسبما يقصها علينا بنفسه (ص ١٤٠)

\*\*\*

وبعد هذا الدرس الطويل الحر تخلق ابن خلدون كشف الأستاذ عنان في الجزء الثانى من كتابه ركناً من أركان شخصية ابن خلدون المضيئة ، وهذا الجزء يلتقى ضوءاً قوياً على عبقرية ابن خلدون ، تلك العبقرية التى صيرته موضع اجلال السلاطين والملوك وذوى النفوذ والجاه ، فهام سلاطين المغرب والأندلس بخطبون وده ، وهام بنو عريف بكرمون مشواه وينزلونه ضيفاً عزيزاً مع أسرته بأحد قصورهم أربع سنين ، وها هو شماع العبقرية يسبقه الى مصر التحضرة ، فيلقاه أهلها بالحفاوة والتعظيم ، ويولونه الدرس في الأزهر الثابه في ذلك الحين ، ثم يتولى بمد ذلك قضاء المالكية عدة مرات ، وهام الكتاب يجمعون على قوة عقله ووحدة ذكائه وعلو تفكيره ، حتى أنصفه الحاقدون عليه ، فجبال الدين البشيشى وهو من ألد خصومه اعترف له بالفصاحة والتفوه ، وابن حجر الذى زرى عليه خاقه ، يظهرنا على ناحية من نواحي عقله يقول : « كان لسنا فصيحاً حسن الترسل وسط النظم ، وكان جيد النقد للشعر ، وإن لم يكن بارعاً فيه » (ص ٩٣)